الينورا

للكاتب الأمريكي إدجار الن بو

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

لقد انحدرت من قوم أخص صفاتهم الخيال المشبوب والعاطفة الملتهبة، ولقد دعاني الناس بالمجنون؛ ولكن الناس لم يصلوا بعد إلى رأي في الجنون. نعم إنهم لم يستطيعوا أن يقرروا ما إذا كان الجنون هو الذكاء في نسقه الأعلى أم إنه ليس من الذكاء في شيء. لم يستطيعوا أن يقطعوا برأي في القضية الآتية:

أليست كثرة أفكارنا المتميزة بالسمو، بل وجميع ما يتصف منها بالنضوج والعمق، إنما هي صادرة عن مرض فكري أو حال غريبة من حالات العقل تسمو وتعظم على حساب غيرها من ملكات التفكير؟ وإن هؤلاء الذين يحلمون في النهار لخليقون أن يصلوا إلى أشياء تغيب عمن لا يحلمون إلا في الليل؛ ففي رؤاهم الشاحبة تتراءى لهم لُمَعٌ من الخلود، حتى إذا ما استيقظوا سرت في أجسامهم النشوة أنهم كانوا على حافة السر الأكبر!

وعلى هذا أقول إني مجنون: أو على الأقل أسلم أن هناك ناحيتين في وجودي الفكري تتميز إحداهما من الأخرى: فأولاهما ناحية البصيرة التي لا تقبل الجدل، وتتصل بذكريات العهد الأول من حياتي، وأخراهما ناحية الشك والغموض، وتتصل بالحاضر كما تتصل من الذكريات بما يكوّن العهد الثاني من وجودي. وعلى ذلك فإذا حدثتك عن شيء من عهدي الأول فصدقه؛ أما عن العهد الثاني فأنت مخير بين أن تقابل ما أحدثك به عنه بما يستحق من الثقة، أو أن ترفضه رفضاً تاماً!

كانت تلك التي أحببتها في صدر شبابي والتي أتلو عليك من ذكريات غرامي بها ما أتلو في هدوء ووضوح، الابنة الوحيدة لخالتي الوحيدة التي ودعت هذا العالم من زمن بعيد. وكانت ابنة خالتي هذه تدعى أليونورا؛ ولقد عشنا متلازمين في واد كثرت ألوان زرعه، سميناه «وادي الألوان». وما كانت تستطيع قدم غريبة أن تهتدي إلى مسالك هذا الوادي؛ ذلك لأنه كان يقع على ربوة عالية تحيط بها شعاب شاهقة كثيراً ما تحجب الشمس عن عدد من بقاعه. وفضلا عن ذلك لم يكن ممراً لأحد حتى تشق الأقدام طريقاً فيه؛ وكثيراً ما كنا نضطر ونحن عائدان إلى منزلنا أن نفسح طريقنا بأيدينا بين الأغصان المشتبكة في كثير من المشقة، كما كنا نطأ بأقدامنا آلاف الزهرات فتقضي على الكثير من معالم الجمال في هذا الوادي... هكذا عشنا وحيدين سعيدين لا نعرف شيئاً عن الحياة وراء وادينا الجميل، أنا وخالتي وأليونورا

فى هذا الوادى الخصيب يجرى نهر ضيق عميق قد انحدر إليه من منبعه فوق هاتيك الجبال ؛ وكان لهذا النهر الجميل طريق غريب أشد لمعاناً من كل شىء إلا عينى أليندورا : وكان كثير المنعطفات ، إلا أنه كان يجرى ساكناً وادعاً ، يشعر المرء على ضفتيه بميل قوى إلى السكينة والهدوء ؛ ومن أجل ذلك سميناه « نهر السكون » . وكانت تمتد على ضفتى هذا النهر ، وعلى ضفاف الغدران التى تنساب إليه بسط وثيرة من العشب النضير ، سالت فى نواحيها الألوان التى تملأ الجو بعبيرها الفياح ، فمن زهرات صفراء فاقعة وساطعة ، إلى زهرات بيضاء يستوقف البصر بياضها ، إلى قرنفلات حمراء ملتهبة ، إلى ورود قرمزية رقراقة ، إلى محاجر بنفسجية باسمة ، إلى غير هذه وتلك من مؤتلف الزهر وشتيته ، مما يزدان به الوادى ويبلغ به حداً بعيداً من الجمال العبقرى ، ذلك الجمال الذى كان يتحدث إلى قلبينا فى صوت جهورى عن الحب وعن عظمة الله الخالق البارئ المصور .

وكانت تتناثر فى أنحاء وادينا أشجار باسقات يجدها المرء هنا وهنالك فى بقاع من العشب الأخضر شبيهة بما يراه الناعم من الجنات ، وكانت تجمع جذوعها بين سواد الأبنوس وبياض الفضة . وكانت ناعمة ، ناعمة تفوق كل شىء فى نعومتها إلا خدى أليندورا . ولولا ما كانت تراه العين فى ذراها من الأوراق لأوحى إلى المرء خياله بأنها مجموعة من ثعابين سوريا الهائلة ، تؤدى فى تمايلها واجب الخضوع إلى القوة المسيطرة عليها وهى الشمس !

فى هذا الوادى الساحر كنت أتجول كل يوم أنا وأليندورا ، ويدها فى يدى ، وقضينا على هذه الحال خمسة عشر ربيعاً قبل أن نعرف الحب طريقه إلى قلبينا ، إلى أن كنا ذات مساء جالسين تحت هاتيك الأشجار ، وهنالك تعانقنا ونظرنا إلى خيالينا

فى « نهر السكون » . ولم تنفرج شفتانا عن كلمة أثناء هذا العناق ، وظللنا صامتين بقية النهار إلا عبارات مضطربة حائرة عما كنا ننوى أن نفعله فى الغد . وكأننا أخرجنا من النهر قوة خفية أشعلت فى روحينا جذوة آبائنا الأولين ؛ فلقد أحسسنا أن حدة العاطفة التى امتاز بها جنسنا على مر القرون مشفوعة بما عرفوا به أيضاً من قوة الخيال قد دب دبيبها فى نفسينا ؛ وسرعان ما بث ذلك فى « وادى الألوان » روحاً جديدة .

ورأينا يد التغيير تمتد إلى كل شىء هنالك . فقد انبثقت زهرات بيضاء ناصعة فى شكل النجوم على أغصان لم يكن يزينها زهر من قبل . وازدادت نضرة البسط الخضراء فى أعيننا . وكانت إذا

انطفأت الزهرات البيض لا تلبث أن تحل محلهن عشرات من الزهرات الحمر المشتعلة ؛ وفضلاً عن ذلك فقد دبت الحياة فى مسالك الوادى . فلقد رأينا الطاووس فى موشيته البهية يختال فى حاشية من الطيور الجميلة ما كانت تقع عليها الأعين من قبل . ورأينا ماء النهر يزخر بالسمك الفضى اللون ، وقد انبعث منه خرير حلو ما تزال تعلو نغماته حتى تنتهى إلى هدهدة جميلة . أكثر قداسة من أنغام قيثارة « أورفيوس » ، وأحلى غناء من كل صوت إلا صوت أليئورا . وإذا رفعنا أبصارنا إلى السماء رأينا قوس الغمام الذى كنا نراه من قبل عظيم البعد ، قد اقترب منا حتى ارتكز من طرفه على قمم الشعاب المحيطة بنا فظللتنا ألوانه الجميلة وحولت ما كان يكتنف الجبال من كآبة قابضة إلى روعة بارعة . وصرنا حيالها نشعر كما لو كان يحجزنا إلى الأبد فى بقعة من الجمال والعظمة

كان جمال أليئورا جمالا ملائكياً ؛ ولكنها كانت فتاة ساذجة رقيقة ، فلم يتخذ ذلك الحب الذى أيقظ قلبها من الخديعة حجاباً يخفى قوته ويستر توقده . تبينت ذلك فى خلال حديثنا بين الأزهار فى « وادى الألوان » ، حينما كانت تشير إلى ما طرأ على الوادى من تغيير

وأخيراً ، حدث أن أفضى بنا الحديث ذات يوم إلى الخاتمة المحزنة التى لا بد أن يصير إليها أهل الفناء . وكنا نحبس دموعنا أثناء ذلك الحديث ؛ ومنذ ذلك اليوم رأيتها تعاود الكلام فى هذا الموضوع ، وصارت تدخله فى جميع أحاديثنا ، على نحو ما تراه فى أغانى شاعر شيراز من تكرار الصور فى كل عبارة يكسبها شكلا أخاذاً من الايضاح والبيان

لقد أحست أن أصبع المنون يمس قلبها ، وأنها كبعض الزهرات الغضة فى الوادى ما خلقت تامة الجمال إلا لتموت ! ولكن الرعب الذى يبعثه الغير كان يتراءى لها فى فكرة كشفت لى عنها ذات مساء وقت الطفل على ضفة « نهر السكون » . كان يزعجها أن تفكر أنى حينما أوارى جثمانها فى « وادى الألوان » لابد لى أن أنصرف عن هذا المكان الجميل ، ومن ثم فلا بد أن ينصرف حبى الذى أمنحها إياه الآن فى هيام وشدة إلى فتاة غيرها ممن يعشن خارج الوادى ، إلى فتاة غادية ممن يصادفهن المرء كل يوم فى هذه الدنيا

هنالك ألقيت نفسى فى لهفة وسرعة على قدمى أليئورا وهمت أمامها بقسم أشهدت الله عليه أنى لن أتزوج بعدها أية فتاة من بنات الأرض ، وأنى لن أظهر ما عشت ما يشعر بتغافلى عن ذكراها العزيزة ، أو ذكرى حبها الصادق القوى الذى عمرت قلبى به وجعلتنى أعرف فى طله نعيم الحياة ؛ ثم اتجهت ببصرى ثانية إلى السماء وأشهدت على قولى الله المسيطر على ملكوت السموات والأرض . وإن اللعنة التى رضيت أن ينزلها على إن أنا حنثت فى يمينى . وصورة العذاب التى قبلت أن يحل بى ، ليبعثان فى الأفئدة من الرعب والفزع ما لا أسمح معهما بتفصيل فى هذا المقام . ثم نظرت إلى عينى أليئورا اللامعتين . فرأيت بريقهما يشتد مع كلماتى ، ثم رأيتها تتنفس الصعداء كما لو أنها ألقت عن صدرها عبئاً كاد يزهقها . ولم تلبث بعد ذلك أن أخذتها رعدة شديدة وتساقط دمعها السخين . ولكنها قبلت يمينى وصدقت دعواى . وليت شعرى ماهى ؟ ألم تكن طفلة غريرة ؟ يا لها من فتاة رقيقة ! لقد

جعلتها عباراتى تنظر حتى إلى الموت نظرة هدوء ويسر . ولقد أفضت إلى بعد ذلك بأيام ، وهى تخطو إلى الموت خطوات هادئة ، أنها جزاء وفاقاً لما فعلت ولما أخذت على نفسى العهد الذى أثلج خاطرها وطمأن روحها ، ستُمنى بى فى السماء حينما تسلم الروح ، وإذا سمح لها فستظهر لى فى جلاء بين أطياف الليل . وإذا كان هذا فوق مقدور الأرواح فى جنانها فسوف تشعر بى بوجودها تختلف الاشارات فأسمع تنهداتها فى رياح المساء ، أو أشعر بالهواء محملاً رائحة عبير الملائكة ونفحات الفردوس . . . وفى مثل هاتيك الأحاديث الحلوة تنفرج عنها شفتاها الجميلتان أسلمت روحها البريئة إلى بارئ الحياة

* * *

كان قوام حديثى حتى نهاية هذه المرحلة من تاريخ حياتى الاخلاص والصدق ، ولكنى حينما أجتاز ذلك السياج القائم فى طريق ، ذلك السياج الذى كونه موت حبيبتى ؛ وحينما أخطو أول خطوة فى المرحلة الثانية أحس كأن ضباباً ينعقد أمام بصرى فيتركنى فى حيرة . لا أدرى إن كان ما أتلو بعد من حديث سيحمل على التعقل أم سيحمل على الجنون ! ولكن دعنى آت بالحديث على سرده

تعاقبت السنون وئيدة الخطى طويلة المهل ، وما زلت مقيما فى « وادى الألوان » ، ولكن يد التغيير قد تناولت للمرة الثانية كل شىء هنالك ؛ فلقد تناثرت تلك الزهرات الشبيهة بالنجوم ولم تعد تراها العين بعد ، ورغبت تلك البسط الخضراء عن لونها الساطع ، وانطفأت الزهرات الحمر واحدة بعد واحدة وحلت مكانها زهرات شبيهة بالعيون السود ، كانت تذوى فى بطء ، ولم يكن يعلق بها الندى . واختفت الحياة من مسالك الوادى ، فلم نعد نرى الطاووس فى زاهى ألوانه ، اللهم إلا فى أوقات كانت تأخذه العين فيها كاسفاً حزيناً راحلا عن الوادى إلى قمم التلال تتبعه جماعات الطير اللواتى أتين معه قبل ذلك . واختفت من مجرى نهرنا تلك السمكات الذهبية الفضية التى كانت تزينه من قبل ، وأخذ يخفت ذلك الخرير الحلو الذى كانت تفوق غماغمه وهدهدة أغانيه من قبل قيثارة « أولوس » سحراً ، والذى كان صوته أكثر قداسة من كل صوت إلا صوت أليونورا ؛ أخذ يخفت ذلك الخرير حتى احتبس وعاد النهر إلى سالف سكونه ، وذاب قوس الغمام ، وتلاشت فى السموات ألوانه البهيجة التى طالما ظللتنا فى هذا الوادى

ولكن أليونورا صدقت وعدها ؛ فطالما سمعت حفيف رهط الملائكة ؛ ولطالما استنشقت العبير المقدس فى أرجاء الوادى . وفى ساعات تأملاتى حينما كانت تتوانى نبضات قلبى ، كنت أتبين فى همس الرياح التى تمس جبينى تنهداتها التى وعدتنى ؛ كما كنت أتبين فى كثير من الأحيان عممة تتناوح بها ريح المساء . وحدث ذات مرة ... آه ولكنها مرة واحدة ! حدث أن أفقت من نومة عميقة كأنها الموت ، على ضغط شفتين علويتين كانتا تلاصقان شفتى !

ولكن الفراغ الذى أحسسته فى قلبى أبى أن يمتلئ حتى على هذه الصورة ؛ وتاقت نفسى إلى الحب الذى أفعم من قبل ذلك القلب حتى طفح به . وأخيراً أصبح الوادى مبعث ألم لفؤادى لما يثيره من ذكريات أليونورا ، فتركته إلى غير رجعة ، واتخذت طريق إلى مضطرب من هذه الدنيا حيث

تزخر الحياة بالغرور والمتاعب والفوز ! !

* * *

ألفيت نفسي في مدينة غريبة ، كان كل شيء فيها جديراً بأن ينفي من الذاكرة أحلامي الجميلة التي ورثتها من « وادي الألوان » ؛ فلقد أذهلني وحير عقلي ما وقعت عليه عيناي من مظاهر العظمة والأبهة في ردهات البلاط ، وملأت نفسي قعقعة السلاح ، واستوقف بصري جمال النسوة ومفاتنهن ، ولكن روحي على الرغم من ذلك ظلت أمينة للعهد الذي قطعته والقسم الذي أديته ؛ وزيادة على ذلك كان شبح أليونورا وكل ما يشعرني بحضورها يملأ المكان حولي في سكون الليل ! ولكن ... على حين فجأة تلاشت كل هاتيك الرؤى وأظلمت الدنيا في عيني ، ووقفت مشدوها أمام الفكرة اللذاعة التي ملكتني . أمام العزم المرعب الذي ملك قيادي ! ذلك أنه وفدت على الحاشية الملكية المرحة حيث كنت أعمل ، فتاة من بلاد نائية لم أعرفها ، فتاة استأثرت بلبي ، وأخذ سحرها بمجامع قلبي ، منذ اللحظة التي وقع فيها على شخصها بصري ؛ فتاة لم أتردد ، ولم أحس بعشقة عند ما أحنيت رأسي لها في أشد ما يكون عليه العاشق من حماس ، بل وفي أحط ما يتطلبه الحب من عبودية ! وأين ما شعرت به من عواطف نحو فتاة الوادي الصغيرة من هذا الهوى المشبوب وهذا الهيام الجامح ، وهذا التحنث الذي ينبض به قلبي حينما أريق روحي عبرات سيالة ، وأنا ملقى على قدمي « ارمنجارد » ؟ ومن هي « ارمنجارد » ؟ أليست ذلك المخلوق السماوي الذي يرق حتى عند الأثير ؟ آه ... يا حسنها ! يا حسن ذلك الملاك الرفاف « ارمنجارد » . ما أطهرك وما أعظم قداستك أيها الملاك ! إنها تملأ جوانب نفسي فلا أفكر في سواها . وحينما ألقي نظرة على عينيها النجلاوين ، وأرى مدى ما في معناها من عمق ، لا أفكر إلا فيهما . وفيها لقد تزوجت غير خائف مما استنزلته على نفسي من اللعنات ، ولم أشعر يوماً بشيء يزعجني لحنث في يميني . وحدث مرة — ولكن مرة واحدة في سكون الليل ، أن تسربت إلى حجرتي خلال الستائر تلك التنهدات الناعمة التي هجرتني ، وحولت نفسها إلى صوت جميل مألوف قائله :

« نم في سلام ! فان روح الحب يحكم ويتسيطر ؛ وإذا كنت تحل في قلبك اليوم تلك التي تدعى ارمنجارد ، فلقد غفر لك ما كان منك تجاه قسمك أمام أليونورا ، وأصبحت بريئاً من الأثم لأسباب سوف يكشف لك عنها حينما ترق إلى السماء » !

محمود الخفيف

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً